صور من الريف

الشيخ عبد الجواد

قبطان القرية

بقلم الأستاذ محمد زكى عبد القادر

"يتوهم المبتدئ فى شرب الخمر أنه قوى الإرادة يستطيع أن يهجر الخمر متى شاء أو متى بدأ يستشعر مضارها . ولكنه ينسى أن الخمر تضعف هذه الارادة وتسلبه سيطرته على نفسه حتى يصبح عبدا لها لا يستطيع أن يعيش بغيرها ، وتظل به حتى تفقده رجولته وحيويته .

هذا هو المعزى الذى يجب أن يستخلص من هذه الصورة الريفية الرائعة"

المحرر

يالذكرى هذا الرجل العزيز على نفسى ، كم تأخذ منها هذه السنوات الطويلة البعيدة ، حين كنت طالبا فى المدارس الثانوية ثم فى كلية الحقوق . أقضى أغلب أشهر السنة فى القاهرة ولا أعود الى قريتى إلا فى الصيف : ثلاثة أشهر أو أربعة ، لا أكاد أخطئ فيها هذا الرجل الكريم يوما . أراه فى الصباح والمساء ، تحت ظل هذه الصفصافة القائمة على شاطئ هذا الغدير المنساب فى رقة وليونة وهدوء . وأسفاه ! ذهبت هى الأخرى . قطعوها ! . . لست أدرى لماذا ؟ وإنى إذ أزورها اليوم ، لا ألقى منها إلا آثارا عفى عليها الزمن . سكنت أعظم الشيخ عبد الجواد قبرها ، وسكنت أعراف هذه الصفصافه الجميلة قبرها ، كأنما كانا فى الحياة وعلى الموت متلازمين .

وكان الريف حينئذ سخيا نديا . كانت نسائمه الرقيقة تهب منعشة رخاء ، كأنما الدنيا كلها تبسم له . كان فى زهده وقناعته كالناسك فى صومعته ، عين الله ترعاه . وتحت ظل هذه الصفصافة فى أمسية الريف السعيدة كان الشيخ عبد الجواد يجلس إلينا يحدثنا عن شبابه وصباه . كان يضحك و يمرح و يغنى . لم يكن هم الدنيا يعرف الى قلبه السبيل . كان مؤمنا هذا الايمان العميق الذى هو طابع أبناء الريف . كان الشيخ عبد الجواد صورة منه . له نبله وصبره . فيه الهدوء والرضاء . لم تكن البسمة تفارق وجهه . مرت عليه الدنيا ببؤسها ونعيمها . ولكنها لم تجده أبدا إلا راضيا قانعا . لم تجده أبدا ، إلا الشاكر الحامد الساجد لله فى السراء والضراء .

تبارك هذا الريف العزيز المجيد ، تبارك ألف ألف مرة ! أين فى غيره يمكن أن تعيش تلك الشخصيات الراضية فى الفقر والغنى ، الصابرة فى الشدة والرخاء ، الباسمة فى الصحة والمرض .

إنى لأفتقد هذا الرجل اليوم فلا ألقاه . لقد مضى بجيل من التقاليد وجيل من الخلق الكريم. وإنى إذ أزور قريتى وأشهد قبره وقد نبت عليه العشب والكلأ ، يروح الخاطر مسرعا الى تلك الحياة الندية المنية التى قضاها الرجل سعيدا طروبا ، وإلى تلك النفس التى كانت تشع النور حواليها وهى تصطرم تحت ضغط الحاجة أو ضغط المرض .

*
* *

لم يكن أحد يتوقع أن يعيش الرجل ويموت بمثل الهدوء والسكينة اللذين عاش بهما ومات . لقد تخللت حياته متاعب . كانت الرياح تصطخب من حوله . كان الفقر يضغط عليه أحيانا . بل كان الجوع يكسر من حدة نفسه ويذل فؤاده . كان فيه ضعف شديد لعله كان مصر بلائه . كان يشرب الخمر فى صباه . ولما اكتملت رجولته قاوم هذا الضعف ثم عاوده فى كهولته بل لعله اشتد . فلما تقدمت به السن تلفت صحته ، وضاع ماله ، فاجتمع عليه الفقر والمرض . كان الرجل يتحدث عن نعمة الله عليه . كان يقول إن ارادة الله له أن يشرب الخمر . وقد حاول أن ينصرف عنها فلم يستطع ، فآمن أنها قدر عليه ، وان الله الكريم سيغفر له ذنبه فيها . كان يعصى الله من غير شر ، ولكننى ما أحسبه كان بعيدا عنه ، كان فى قلبه هذا النور المضيء الذى يلمع تحت المحنة ، ويومض فى ظلام الخطيئة ، ليقول لكل الناس إن معدن هذا الرجل صاف ، وأن الله يبتليه ولكن يحبه . وما أحسب رجلا آمن وصبر على قضاء الله صبر هذا الرجل وإيمانه . لقد طوى بطنه على الجوع أياما . ولكنه ظل كريم الفؤاد لم يسأل أحدا غير الله . وظل مشرق الوجه لم يعبس أبدا .

كانت فيه على فقره فى آخر أيامه عفة لم تخذله ، وفى صدره إيمان هون عليه الحياة فى أقسى صورها فاحتمل به الفقر والمرض واحتمل أكثر من ذلك . احتمل إهانة زوجه وأولاده . كان الرجل فى آخر أيامه أشبه بالطريد . إنها محنة الخمر هدت من جسده القوى وبنيانه المتين . ولا يغفر أحد فى الريف ذنب رجل يشرب الخمر . ولذلك فقد الرجل أصدقاءه ولكنه لم يفقد إيمانه . ظل يصلى ويصوم ، وظل قلبه يومض بحب الله . كان يدعوه فى صلاته أن يرحمه من هذا الضعف ، وأن ينزل على قلبه السكينة ويهديه سبيلا سويا . ولم يستجب الله لدعاء الشيخ عبد الجواد ، فظل هذا الضعف يشتد معه كلما ازداد وهنا ، واشتعل رأسه شيبا . بل لقد بلغ هذا الضعف حد المحنة . كان الرجل فى آخر أيامه فقيرا ، فلم يكن يجد من المال ما يشترى به الخمر ، فكان يزج الماء بالسبرتو !.. ويشرب هذا المخلوط العجيب ، فكان يفرى كبده ، ويقطع أوصال قلبه . وكنت أحيانا أسأله أن يرحم صحته ويرحم حياته ن هذه النار التى يصبها عليها ، فكان يقول : " وماذا أصنع يا بنى ، ان الله أراد بى ذلك . ده لحكمة خافية . ومع ذلك أتحسبنى سأذهب الى جهنم . كلا . . إنى أعرف أن الله سيغفر لى . إن الشعور الخفى الذى يضفى على الطمأنينة لا يكذبنى . إننى سأذهب الى الجنة" والدمع فى عينى الرجل شبه دموع . بل هى على التحقيق كانت دموعا ، تضطرب بين الجفون ويحجبها أن تتساقط كرامة الرجولة فى نفسه .

وا أسفاه . لكم دعوت لهذا الرجل أن يرحمه الله من هذا الضعف . كيف كان يكون حينئذ؟ . كان يحب ابنه الوحيد. وكان يعطف عليه عطفا شديدا . وكان يحب ابنه الوحيدة بل كان يدللها . وكان كل منهما يحبه . ولكن هذا الرجل نفسه حينما يستبد به الضعف للخمر كان يأخذ القرش من قوته وقوت أولاده ، فيشترى به خمرا أو سبرتو .

يا لهذا الضعف! كيف بدل الرجل خلقا آخر! كيف أحاله وجرده من كل شيء ؟ لقد فرت كبده جرعات السبرتو فهدت كيانه ، وأهوت على جسمه العريض كأنها معاول فى يد جبار . حرقت كل عصو فيه . ضعضعت حواسه وأضعفت بصره .

كان الشيخ عبد الجواد قبانى القرية. وكان له عهد قديم سعيد، لم أشهده ولكن يحكى لى عنه من عاصروه. كانت فى الرجل شهامة الريف كاملة ونبل الريف كاملا. لم تكن الخمر قد أضعفت نفسه هذا الضعف الشديد. كان فى الصباح الباكر يخرج الى حوارى القرية وأزقتها ومعه "السيبة" الطويلة الثقيلة ، تتدلى منها "رماتها" الضخمة يزن للفلاحين أقطانهم. كل منهم يستقبله فى بشر وترحاب . وهو لا يفتأ يبادلهم النكتة والضحكة والبسمة . يشيع فى كل ما حوله جو المرح . وفى موسم القطن تكون النفوس مستعدة لهذا المرح . فإن الفلاح يبيع قطنه ويرى للمرة الوحيدة فى العام جنيهات كثيرة تدخل جيبه . ويتحول الريف كله تحولا غريبا . تزايله الكآبة والوجوم ، ويلوح كأن الحياة تدب فيه بشر وانطلاق . وتلمح على وجوه هؤلاء الفلاحين الطيبين المؤمنين الراضين شتى المعانى العميقة، فهم شاكرون لله الكريم نعمته. شاكرون له فصل الأرض عليهم وفصل ما أنبتت وما جنوا . تجد هذا يسعى الى "السوق" مسرعا مرحا ، وذاك يجرى ليلحق بقطار "الدلتا" لأنه يريد أن يذهب الى "البندر" ليشترى "كردان" لابنته التى توشك أن ترف . وهؤلاء الصبية والبنات ، بل هؤلاء الأطفال والطفلات أزهار الريف الكثيبة طول العام ، تأخذ تتفتح وتشرق فى موسم القطن ، وتطلق فى جو الريف أغانى الريف الحلوة ، يطلقونها وهم ذاهبون فى الصباح الى حقول القطن ، ويطلقونها فى المساء ، وهم عائدون الى منازلهم ندية بأرضاء قلوبهم ، شاكرة الى نعمة الله نفوسهم. فى هذا الموسم كان الشيخ عبد الجواد يعض صوره الحبيبة الى نفوس القرويين. إن الخير يسعى اليهم مع "سيبته" الثقيلة ومع رماتها الضخمة . وحين يزنون كيس القطن لكى يوزن تقف من حوله أنفاس صاحبه ، يرجو أن يبارك الله له فى الميزان كما بارك فى الزرع والجمع .

أيوه . . يا عم الشيخ عبد الجواد ربنا يطرح فى إيدك البركة .

ويأخذ الشيخ عبد الجواد يهز الرماتة ويحركها ذات اليمين وذات اليسار على العود الطويل حتى تستقر عند الميزان الصحيح، ثم يقول فى صوت أجش فيه "غنة" يجيدها قبانية الريف .

خمسة وخمسين تلتميه ... أيوه تتميه خمسة وخمسين .

ويقبل الفلاح يده طهرا لبطن ، ويقول : كله خير . نعمة من الله .

واشتغل الشيخ عبد الجواد فى صدر شبابه ناظرا لزراعة أحد الذوات . كان متصرفا على نحو ٣٠٠ فدان . فى هذه الأيام كان عهده الذهبى . كانت النقود تجرى سخية بين يديه وكان الرجل كريما جوادا . لم يعرف عنه حينئذ أنه ردّ سائلا أو أساء معاملة فلاح . كان بيته يمثل حينئذ تقاليد الريف النبيلة ، مفتوحا لكل طارق ولكل غريب ، يجد فيه الطعام والمبيت ، وربما وجد الكساء أيضا . تمثلت حينئذ فى حياة الشيخ عبد الجواد كل فضائل الريف حتى أحبه الناس جميعا ، وأنس إليه الناس جميعا . وكان محدثا بارعا حاضر النكتة . لا ينضب ينبوع فؤاده . ولا يخبو نور الهناء فى قلبه . بل كان يجد منه فائضا يشعه على من حوله .

يالله ... كيف اجترأت الخمر على كل هذه الكنوز تسلبتها حتى آخر درهم ، وتركت صاحبها مجردا من كل شىء . ولكنها لم تجترئ على شىء واحد : هو إيمان الرجل . ظل معه فى محنته كما ظل فى حظوته . وهذا فضل من الله . فقد وجد الرجل فى هذا الايمان ملاذا مسح عن صدره وعن قلبه ، وأفاء عليه الرضاء والهناء . الرضاء والهناء حتى فى أشد أيام شقوته وهو طريد أو كالطريد .

لا يزال حتى اليوم وجهه يطالعنى من خلال السنين . وجه الرجل النبيل الكريم . وجه الرجل التقى النقى الذى امتحنه الله أعظم امتحان . بسط عليه النعمة حتى لا يطمع فى مزيد . وبدلته الأيام بها فقرا ومرضا وتحقيرا . ولكنه ظل فى نفسه ، فى إيمانه ، فى قلبه مع الله . لم يتخل عنه لحظة من اللحظات ، إلى أن أسلم — وا أسفاه — أنفاسه ، فلم يجد صدرا حنونا يشد عليه غطاء الحياة الأخير . ولكنه انتقل إلى رحمة ربه يغفر له ذنبه ، ويفسح له فى منازل الصديقين الراضين .

محمد زكى عبد القادر

الى عشاق المهجور من الألفاظ

يقول صفى الدين الحلى فى انتقاد المغرمين بغريب الكلمات :

إنما الحيزبون والدردبيس ... والطخا والنقاخ والعلطبيس

لغة تنفر المسامع منها ... حين تروى وتشمئز النفوس

وقبيح أن يذكر النافر الوحـ ... ـشى منها ويترك المأنوس

أين قولى : هذا قديم ، ومقال : عقنقل قدموس ؟